إبراهيم عليه السلام

obeikandl.com

obeikandl.com

إبراهيم عليه السلام

هو إبراهيم خليل الله، ابن تارح بن ناحور، يمتد نسبه إلى سام بن نوح عليه السلام.

وهو عليه السلام ثاني الأنبياء، ومن أولي العزم من الرسل، وبعد صالح لم يُبْعَث نبي حتى بُعِثَ إبراهيم عليه السلام.

وُلِدَ إبراهيم عليه السلام بأرض بابل (بين دجلة والفرات)، وكان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والأوثان، ويسجدون للكواكب، فبعث الله إليهم إمام الحنفاء إبراهيم عليه السلام، فدعاهم إلى وجوب إخلاص العبادة لله وحده.

دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه:

كان والد إبراهيم في مقدمة عابدي الأصنام، بل كان ممن ينحتها ويبيعها.

فأراد إبراهيم عليه السلام أن يدعو والده إلى عبادة الله الواحد الأحد وترك عبادة الأصنام.

فقال له: يا أبت، لِمَ تعبد هذه الأصنام والأوثان التي لا تسمع دعاء عابدها، ولا تبصر مكانه، فكيف تغني عنه شيئاً أو تفعل به خيراً من رزق أو نصر، أو غير ذلك.

ثم قال له: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ [مريم: ٤٣].

ولكنَّ أباه ردَّ عليه قائلاً: يا للعجب، أمُعْرِض أنت عن عبادة الأصنام يا إبراهيم؟ لئن لم ترجع عمَّا أنت عليه لأرجمنَّك بالحجارة، فقال له إبراهيم عليه السلام: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم: ٤٧].

هذا وقد استغفر إبراهيم لأبيه كما وعده، ولكن قبل يأسه من إيمانه، أما بعد أن تبيَّن له أنه عدو لله لا يريد أن يترك عبادة الأصنام فقد تبرَّأ منه.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٤][1].

إبراهيم عليه السلام والأصنام:

كان من عادة قوم إبراهيم عليه السلام أن يقيموا عيداً لهم في كل عام يقضون أيامه خارج المدينة، وكانوا يضعون الأطعمة الشهية الكثيرة في بيوت العبادة لتباركها آلهتهم، حتى إذا رجعوا من عيدهم أكلوا فرحين.

وهنا انتهز إبراهيم عليه السلام فرصة غيابهم ليحطم الأصنام التي كانوا يعبدها قومه، فأقسم على تحطيمها؛ حتى يثبت لقومه أنها لا تضر ولا تنفع ولا تستطيع إلحاق الأذى بمن يصيبها بضرر.

لمَّا اقترب وقت العيد، قال أبوه: يا بنيّ لو خرجت معنا إلى عيدنا

---

(١) «قصص الأنبياء»، ابن كثير. (بتصرف).

لأعجبك ديننا، فخرج معهم، فلمّا كان ببعض الطريق ألقى إبراهيم عليه السلام نفسه إلى الأرض وقال: إني سقيم، فجعلوا يمرون عليه وهو صريع فيقول لهم: إني سقيم.

فلما جاز عامتهم وبقي ضعفاؤهم قال لهم: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنبياء: ٥٧].

ثم قام إبراهيم عليه السلام متوجهاً إلى بيت الآلهة وبيده فأس، وكان بعضها إلى جانب بعض، يتصدرها كبيرها، ورأى أمامها ما تركه القوم قرباناً لها من الطعام والشراب لتأكله، في زعمهم.

فخاطب إبراهيم عليه السلام الأصنام ساخراً: ألا تأكلون؟!

فلمَّا لم يجبه أحد، قال: ما لكم لا تنطقون؟

فانهال عليهم بالفأس، وجعل يكسرهن ويحطمهن، وجعلها قطعاً صغيرة، حتى إذا لم يبق إلا الصنم الكبير علَّق الفأس في عنقه، ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنبياء: ٥٨]؛ ليرجعوا إليه ويسألوه عمَّا وقع لآلهتهم، فلا يجيبهم؛ فيظهر لهم بطلان عبادة الأصنام.

ترك إبراهيم عليه السلام أكبر الأصنام، وكان من ذهب، وكان عدد الأصنام اثنين وسبعين صنماً، بعضها من ذهب وبعضها من فضة وبعضها من نحاس وبعضها من خشب.

ولمَّا رجع القوم من عيدهم ودخلوا إلى معبدهم، فوجئوا بآلهتهم أنقاضاً متفرقة، وأشلاءً ممزَّقة، إلا الصنم الكبير منهم، فوجدوه على حاله.

حينئذٍ تملَّكهم الفزع والعجب وهم يصيحون: ما هذا البلاء الكبير؟! وما هذه المصيبة العظيمة؟! ومَن الذي فعل هذا بآلهتنا؟! إنه إذاً لمن الظالمين، فإنه لابد أن يذوق وبال أمره وعاقبة مكره.

قال قائل منهم: سمعنا فتىً يقال له إبراهيم يذكرهم بالسوء، ويحتقر عبادتنا لهم، لابد أن يكون هو الذي اجترأ وفعل هذه الفعلة المنكرة بآلهتنا.

جيء بإبراهيم عليه السلام، فسأله الحكام: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنبياء: ٦٢].

فردَّ عليهم إبراهيم عليه السلام قائلاً: الذي حطم الأصنام هو كبيرهم، وأن الشاهد على فعله بقية الأصنام، ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنبياء: ٦٣].

فقد غضب الصنم الكبير من أن تعبدوا هذه الأصنام الصغيرة، وهو أكبرهم منها، فكسرها.

فقال بعضهم لبعض: أنتم الظالمون بعبادة معبودات لا تستطيع النطق ولا تستطيع الدفاع عن نفسها.

ولكنهم رجعوا إلى جهلهم وعنادهم، وعادوا إلى مجادلة إبراهيم قائلين: إنك تعلم أن هذه الأصنام لا تقدر أن تنطق فكيف تطلب منَّا أن نسألها؟

فقال لهم إبراهيم عليه السلام: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: ٦٦، ٦٧][1].

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن»، القرطبي. (بتصرف).

إبراهيم عليه السلام والنار:

اتفق الملك وشعبه على إدانة إبراهيم عليه السلام وقرَّروا الانتقام لآلهتهم، فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

وبدأوا بجمع الحطب ليقيموا عليه ما قرَّروه، فجمعوا حطباً كثيراً جدًّا، حتى إنَّ المرأة إذا مرضت تنذر إن عوفيت أن تحمل حطباً لحرق إبراهيم، ثم جعلوه في حفرة من الأرض، وأضرموها ناراً، فكان لها شرر عظيم ولهب مرتفع لم توقد نار قط مثلها، حتى إنَّ الطير إذا مرَّت من جنباتها احترقت، ثم جاءوا بإبراهيم عليه السلام وهو مقيَّد بالحبال، وقذفوا به من مسافة بعيدة.

فلمَّا ألقوه قال: «**حسبي الله ونعم الوكيل**».

وهنا ينزل سيد الملائكة جبريل عليه السلام من السماء.

فقال: يا إبراهيم، ألكَ حاجة؟

فقال إبراهيم: أمَّا إليك، فلا.

فقال جبريل: فاسأل ربّك.

فقال إبراهيم: حسبي من سؤالي علمُه بحالي.

ثم دعا إبراهيم عليه السلام ربه فقال: يا الله، يا واحد، يا أحد، يا صمد، يا من لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، نجّني من النار برحمتك؛ فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى النار: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾ [الأنبياء: ٦٩][1].

---

(١) «الأنبياء حياتهم وقصصهم»، العاملي. (بتصرف).

أقام إبراهيم عليه السلام في النار سبعة أيام لم يقدر أحد أن يقرب منها، ثم جاؤوا فإذا هو قائم يصلي، وكان يقول: ما كنت أياماً قط أنعم مني في الأيام التي كنت فيها في النار.

الذي حاج إبراهيم في ربه:

كان النمرود بن كنعان بن كدش، ملكاً على عهد إبراهيم عليه السلام، وكان يدّعي الألوهية، وكان أحد ملوك الدنيا.

فبلغته دعوة إبراهيم عليه السلام التي تقوم على عبادة الله وحده، فبعث الملك في طلبه ودار بينهما هذا الحوار:

سأل الملك إبراهيم عليه السلام عن صفات ربه الذي يدعو إلى عبادته؟

فأجابه: بأن ربه هو الذي يحيي ويميت.

قال الملك: أنا أُحيي وأُميت.

قال إبراهيم: وكيف ذلك؟!

قال الملك: آخذ رجلين قد استحقا القتل، فأقتل أحدهما فأكون قد أمَتُّه، وأعفو عن الآخر فأكون قد أحييتُه.

قال إبراهيم: فإن الله يأتي بالشمس من المشرق، فإن كنت كما زعمت من أنك تحيي وتميت فأتِ بهذه الشمس من المغرب.

فلم يجد الملك كلاماً يجيب إبراهيم عليه السلام به، بل انقطع وسكت وبهت، وكان من الظالمين.

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ

﴿إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: ٢٥٨][1].

إبراهيم عليه السلام وسارة:

كان إبراهيم عليه السلام في بداية حياته ببابل بالعراق، وتزوج سارة وهي قريبته، وكانت قد آمنت برسالته، وكذلك آمن له لوط ابن أخيه، وكانت سارة عليها السلام عاقراً لا تلد، وكانت قد رُزقت حظًّا كبيراً من الجمال وحُسن الهيئة، وكانت عليها السلام صاحبة ماشية كثيرة، وأرض واسعة، وقد وهبت ما كانت تملكه لزوجها إبراهيم عليه السلام؛ ليقوم بإصلاحه وتنميته.

سارة عليها السلام والمحنة:

هاجر إبراهيم عليه السلام وزوجته نحو مصر وبصحبته زوجه سارة، ولما وصلا مصر علم إبراهيم عليه السلام أَنَّ جبَّار مصر يطمع في النساء، فخاف إبراهيم عليه السلام على زوجه سارة، فقال لها: إن هذا سألني عنك، فأخبرته إنّك أختي، فلا تكذبيني عنده، فإنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك، وإنك أختي في كتاب الله.

وفي مصر، لَمَحَ أحد أعوان حاكمها سارة، فهب مسرعاً ودخل على الملك وقال له: يا سيدي قدمت امرأة إلى مصر لا ينبغي أن تكون إلا لك، فقال له الملك: اذهب وأحضرها.

فانطلق الرجل حتى إذا أتى سيدنا إبراهيم وزوجه ساره قال له: إنَّ

---

(١) «صفوة التفاسير»، محمد علي الصابوني. (بتصرف).

الملك أمرني بأن آخذ هذه المرأة إليه.

وحلَّت سارة قصر الملك وكان قلبها موصولاً بالله ساكناً وقوراً، وكان يملأ قلبها يقين أنَّها في رعاية رب العالمين.

فلمَّا دخل عليها الملك قالت سارة: اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك، وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تُسلِّط عليَّ الكافر. فلمَّا اقترب منها نزلت به رهبة زلزلته وغشيه رهق شديد وشُلت يده، توسل الجبار إلى سارة قائلاً: أيتها المرأة الصالحة ادعي ربّك أن يطلقني ولا أضرك، ولا أعود لما تكرهين.

توجهت سارة إلى ربها، ودعت الله أن يطلق يد هذا الظالم الجبار، فأُطلق، ولكن الشيطان سوّل له أن يمد يده ثانية إلى سارة زوج خليل الرحمن، فلمَّا اقترب منها شُلَّت يده بقوَّة.

عندئذٍ قال لسارة: ادعي إلهك الذي تعبدين أن يطلقني، ولا أعود، فدعت الله، فأطلقه، ثم كرر ذلك مرةً ثالثة.

وهنا نظر إليها نظرة رجاءٍ واستعطاف، وقال في خشوع: ادعي إلهك أن يطلقني ولن أعود أبداً.

ولمَّا استوثقت منه سارة، ورأت صدقه دعت الله أن يطلق يده فاستجاب الله دعاءها وأطلق يده.

وفي لحظة خشوع ورجاء قال الملك لسارة: يا هذه، ما أطوع ربك لك حين دعوته عليَّ!!

فقالت له بيقين الإيمان: وأنت يا هذا، إن أطعته أطاعك. ثم دعا الذي جاء بسارة، وقال له: أخرجها عني، فإنّك لم تأتني بإنسانة، إنما

أتيتني بشيطانة، ثم وهبها جارية اسمها هاجر.

وكان سيدنا إبراهيم عليه السلام من وقت ذُهب بسارة إلى الملك قام يصلي لله عز وجل، ويسأله أن يدفع عن أهله، وأن يرد بأس هذا الذي أراد بأهله سوء، فعصم الله سارة وصانها لعصمة عبده ونبيّه وخليله إبراهيم عليه السلام [١].

زواج إبراهيم عليه السلام من هاجر:

عاد سيدنا إبراهيم عليه السلام من مصر إلى فلسطين، وعادت معه سارة وفي صحبتها هاجر المصرية تخدمها، وتخدم زوجها إبراهيم عليه السلام، واستقروا جميعهم في بيت المقدس، وتمضي الأيام والسنون، وأصبحت سارة عجوزاً قد وهن العظم منها، هنا فكرت سارة أن تزوج هاجر بإبراهيم عليه السلام.

فقالت لإبراهيم: يا خليل الرحمن، هذه هاجر، أهبها لك، عسى أن يرزقنا الله منها ذرية.

وافق إبراهيم عليه السلام الزواج من هاجر، وحملت فولدت غلاماً سوياً زكياً أسموه إسماعيل.

فرحت سارة بهذا الغلام الوسيم، وقد ألقى الله محبته في قلبها، فهو ابن زوجها إبراهيم وابن جاريتها هاجر، ثم توجهت إلى ربها شاكرة حامدة، وقالت: الحمد لله الذي وهب لنا إسماعيل [٢].

---

(١) «تاريخ مدينة دمشق»، ابن عساكر. (بتصرف).
(٢) «البداية والنهاية»، ابن كثير. (بتصرف).

سارة ورُسُل الله:

كان لوط عليه السلام ابن أخي إبراهيم عليه السلام يدعو قومه إلى عبادة الله عز وجل، ويحذرهم غضب الله.

وعكف لوط يدعوهم إلى الرشاد، وألا يتبعوا شهواتهم، فاتخذوا دعوته هزوا، ولم يزدهم دعاؤه إلا فراراً، وأنذرهم فما زادهم إلا نفوراً وإعراضاً، ولمَّا ضاقوا به قالوا له مستهزئين: ﴿ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

ولما يئس لوط عليه السلام من هدايتهم؛ لجأ إلى ربه وقال: ﴿ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [العنكبوت: ٣٠].

وكان ذلك في سدوم قرب الأردن، أمَّا في بيت المقدس فقد كان إبراهيم وسارة وهاجر يشكرون ربّهم الذي وهب لهم إسماعيل، وكان سيدنا إبراهيم عليه السلام ينتظر من يأتي عليه من الضيوف ليحسن نزله، وكان عليه السلام يلقب بأبي الضيفان لكرمه.

وذات يوم أقدم رجال نحو خيمة إبراهيم عليه السلام، ففرح بهم فرحاً شديداً، وكذلك زوجه سارة سُرَّت بهم سروراً عظيماً، دنا الرجال من الخيمة وكانوا ثلاثة، وعندما اقتربوا من إبراهيم قالوا: سلاماً.

قال إبراهيم عليه السلام: سلام.

ثم نظر إبراهيم عليه السلام إلى ضيوفه، فرأى ضيوفاً لم يُضف مثلهم حُسناً وجمالاً، كانت وجوههم تشع بالنور، فأجلسهم إبراهيم، وأعد لهم مُتكأً، وطلب من سارة أن تعد لهم الطعام.

قَدَّمَ إبراهيم عليه السلام إلى ضيوفه عجلاً سميناً مشوِيًّا، وكان العجل

شهياً يسرُّ الناظرين، ويمتع الآكلين، ثم جلس ليأكل معهم، وفي ناحية الخيمة قامت سارة تخدم الضيوف، فلم يُقبل أحد من هؤلاء الضيوف، ولم تمتد يد واحد منهم إلى اللحم.

فلمَّا رأى إبراهيم أيديهم لا تصلُ إلى العجل نكِرَهم وأوجس منهم خيفة، ثم قال لهم: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢﴾ [الحجر: ٥٢].

عندئذٍ كشف الضيوف عن حقيقتهم وقالوا: نحن ملائكة الله مررنا عليك، ثم طمأنوه وبشَّروه وقالوا: ﴿لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۝٢٨﴾ [الذاريات: ٢٨].

كانت البشارة بإسحاق من زوجه العقيم سارة، ثم أخبروه أنهم أُرسِلوا إلى قوم مجرمين، قوم لوط؛ حتى يرسلوا عليهم حجارة من طين، ﴿مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ۝٣٤﴾ [الذاريات: ٣٤].

سمعت سارة البشرىٰ من الملائكة الكرام، فتعجبت وقالت: عجوز عقيم!!

ثم قالت: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢﴾ [هود: ٧٢].

فقالت الملائكة: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ۝٧٣﴾ [هود: ٧٣][1].

هجرة إسماعيل عليه السلام بابنه إسماعيل إلى مكة المكرمة:

عاشت هاجر في بداية ولادتها أياماً سعيدة، وهي قريرة العين

---

(١) «تفسير الخازن»، الخازن، و«تفسير ابن كثير»، ابن كثير. (بتصرف).

بطفلها، وبدأت تتفاخر وتعتز بهذا الولد، مما أثار الغيرة في نفس سارة، واشتدت هذه الغيرة يوماً بعد يوم، فصارت تضيق بها وبولدها، حينئذٍ طلبت سارة من إبراهيم عليه السلام أن يغيّب هاجر عنها، وناشدته بالله أن يخرجها من عندها.

وعرفت هاجر ذلك؛ فأسلمت وجهها لله رب العالمين، ورأت بعين بصيرتها أن الله لن يضيعها.

أوحى الله عزَّ وجلَّ إلى إبراهيم عليه السلام أن خُذ هاجر وابنها إسماعيل، واخرج إلى الأرض المباركة (مكة المكرمة).

أخذ إبراهيم عليه السلام هاجر ومعها ابنها إسماعيل، ونزل بوادٍ غير ذي زرع، لا ماء ولا شجر، ولا ظل ولا حياة، لم يكن بالوادي أحد من البشر، أنزل إبراهيم عليه السلام هاجر وطفلها الرضيع قرب بيت الله المحرم، وترك لهما وعاءً فيه تمر، وسقاءً فيه ماء، ثم ذهب منطلقاً إلى بيت المقدس، وتبعته هاجر.

فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا في مثل هذا الوادي الذي ليس فيه إنسٌ ولا شيء؟!

لم يلتفت إبراهيم عليه السلام إليها امتثالاً لأمر الله.

كررت هاجر قولها مراراً: أين تتركنا يا إبراهيم؟!

لكن إبراهيم عليه السلام لم يُكلمها أبداً.

عاد نور الله سبحانه إلى قلب هاجر، وكان يقينها بالله أقوى من كل شيء، فقالت له: آلله أَمَرَكَ بهذا؟

قال إبراهيم عليه السلام: نعم، ربي أمرني بهذا.

وقفت هاجر وقالت في ثقة المؤمن المطمئن: إذن لا يضيّعنا الله.

ذهب عن هاجر الروع، ونزل في قلبها أمنٌ وسلام.

وقالت لزوجها: إذن لا يضيّعنا الله، فامض يا إبراهيم لِمَا أمرك به الله.

انطلق إبراهيم عليه السلام واستقبل بوجهه البيت ثم دعا ربَّه فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: ٣٧][1].

هاجر وبئر زمزم:

ترك إبراهيم عليه السلام زوجه هاجر وابنه إسماعيل، وعاد ليكمل رسالة النبوّة التي أمره الله بإبلاغها للعالمين.

جلست هاجر ترضع إسماعيل وأخذت تمدُّ عينها إلى ما حولها... السماء فوقها... الجبالُ من حولها، سَكَنَ من حولها كل شيء.

وراحت تأكل من جراب التمر، وتشرب من سقاء الماء، ونفد الماء؛ فأحست بالعطش، وعطش ابنها.

نظرت هاجر إلى ابنها وهو يتلوَّى من العطش، فراحت تمشي مسرعة تبحث عن الماء، حتى وصلت جبل الصفا، فصعدت عليه فلم تجد شيئاً ولم تر أحداً، ثم أتت جبل المروة فوقفت عليه ونظرت لترى

---

(١) «فتح الباري بشرح صحيح البخاري»، ابن حجر العسقلاني. (بتصرف).

أحداً، لكنها لم تَرَ أحداً.

وراحت هاجر تسعى بين الصفا والمروة سبع مرات، وهي تتلهفُ على رؤية أحد لعلّه ينقذ ابنها من الموت عطشاً.

ولمَّا اقتربت هاجر من جبل المروة سمعت صوتاً فتلفتت فإذا هي ترى إسماعيل يفحص الأرض بقدميه، فنبع الماء من تحتها، طارت هاجر فرحاً، واستبشرت، وجعلت تغرف من الماء تسقي ولدها وتروي نفسها[١].

قال رسول الله ﷺ: «**يرحم الله أمّ إسماعيل، لو تركت زمزم، لكانت زمزم عيناً معيناً**»[٢].

قبيلة جُرهم وهاجر:

ولمّا تفجَّر ماء زمزم لزمت الطير الوادي حين رأت الماء.

فقال بنو جرهم ـ وكانوا يسكنون بوادٍ قريب من مكة ـ: **ما لزمت الطير الوادي إلا وفيه ماء، لعهدُنا بهذا الوادي وما فيه ماء! وأرسلوا واردهم ليرى الخبر.**

انطلق الوارد، فنظر عن كثب فرأى الماء، وإذا بهاجر عند نبع زمزم، وتقدم رسول جرهم إلى هاجر وقال لها: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟

قالت: نعم، ولكن لا حقَّ لكم في الماء.

---

(١) «أخبار مكة»، الأزرقي، و«دلائل النبوة»، البيهقي. (بتصرف).
(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»: (٣٣٦٤).

قال: نعم، قَبِلْنا.

وجاءت قبيلة جرهم برجالها ونسائها وأطفالها وأنعامها، وتحلَّقوا حول الماء، ومنذ ذلك اليوم دبَّت الحياة هناك، فكانوا معها حتى شبَّ إسماعيل وماتت هاجر، فتزوج إسماعيل منهم، ثم تعلَّم اللغة العربية منهم هو وأولاده.

الذبيح إسماعيل:

شبَّ إسماعيل عليه السلام، وأطاق السعي والعمل، وقد بلغ من العمر بضعة عشر عاماً.

وذات يوم نام إبراهيم عليه السلام، فرأى في المنام أنه يذبح إسماعيل، قال رسول الله ﷺ: «**رؤيا الأنبياء وحي**»(١).

عرض إبراهيم عليه السلام رؤياه على إسماعيل، فقال له: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢].

لم يرفض إسماعيل عليه السلام ذلك الأمر الربَّاني العظيم، بل لم يتردد، وإنَّما قال مطيعاً لله ولرسوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات: ١٠٢].

وهنا أثنى الله سبحانه وتعالى على صدق إسماعيل، فقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤].

في تلك اللحظات التي كان فيها إبراهيم يمتثل لأمر ربه، كان إبليس اللعين يقوم بالوسوسة لهاجر.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»: (١٣٨).

جاء إبليس إلى هاجر في صورة رجل، وقال لها: هل تدرين أين ذهب إبراهيم بابنك؟

قالت: ذهب به ليحتطب من هذا الشِّعب.

قال: لا والله، ما ذهب به إلا ليذبحه.

قالت: هو أرحم به وأشد حبًّا له من ذلك.

قال: إنَّه يزعم أن الله أمره بذلك.

فقالت له: إن كان ربّه أمره بذلك فحقًّا عليه أن يطيع ربَّه، وحاول إبليس كذلك أن يتعرض لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ولكنه رجع بغيظه، ولم يُصب من آل إبراهيم شيئاً مما أراد.

هنا أسلم الابن البار نفسه لأبيه امتثالاً لأمر ربه.

وقال: يا أبت، اشدد رباطي حتى لا أضطرب، واكفف عني ثيابك حتى لا ينتضح عليها دمي فتراه أمي فتحزن، وإذا أتيت أمي فأقرئها مني السلام.

ثم فعل إبراهيم عليه السلام ما طلب منه ابنه، وأقبل عليه يُقبِّله وعيناه تفيضان من الحزن والدموع.

ثم إنه وضع السكين على حلقه فلم تعمل السكين شيئاً.

فقال له إسماعيل: يا أبت، كبني على وجهي حتى لا تنظر إلى وجهي فيرق قلبك فتحول بينك وبين أمر الله.

ففعل إبراهيم ذلك، ثم وضع السكين على قفاه، حينئذٍ سمع النداء يقول: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٤ ـ ١٠٧][1].

إبراهيم عليه السلام يزور ابنه إسماعيل:

تزوج إسماعيل عليه السلام من بني جُرهم وجاءه أبوه عليه السلام ليزوره فلم يجده.

فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا رزقاً.

ثم سألها إبراهيم عليه السلام عن عيشتهم وهيئتهم.

فقالت: نحن بشرٌ، نحن في ضيق وشدّة، وشكت إليه.

قال: فإذا جاء زوجك اقرئي عليه السلام، وقولي له يغيّر عتبة بابه.

وجاء إسماعيل فقال لامرأته: هل جاءكم من أحد؟

قالت: نعم، جاءنا شيخ صفته كذا وكذا، فسَألَنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أنّا في جهد وشدة.

قال: هل أوصاك بشيء؟

قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول لكَ غيّر عتبة بابك!

قال إسماعيل: ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك، فالحقي بأهلك، فطلقها وتزوج منهم أخرى.

ولبث عنهم إبراهيم ما شاء، ثم أتاهم بعد، فلم يجده.

فدخل على امرأته، فسأل عنه.

---

(١) «تفسير البغوي»، البغوي. (بتصرف).

فقالت: خرج يبتغي لنا.

قال إبراهيم عليه السلام: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشتهم وهيئتهم.

فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله.

فقال: ما طعامكم؟

قالت: اللحم.

قال: ما شرابكم؟

قالت: الماء.

قال إبراهيم عليه السلام: اللهم بارك لهم في اللحم والماء.

فقال لها: هل عندك ضيافة؟

قالت: نعم، وجاءت له باللبن واللحم، فدعا لهما بالبركة.

ثم قال: إذا جاء زوجك، فأقرئي عليه السلام، ومريه يثبِّت عتبة بابه.

فلمَّا جاء إسماعيل عليه السلام قال: هل أتاكم من أحد؟

فقالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك، فأخبرته، فسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أننا بخير.

قال: أوصاك بشيء؟

قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك.

قال: ذاك أبي، وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك[1].

---

(١) «صحيح قصص الأنبياء»، ابن كثير. (بتصرف).

بناء البيت الحرام:

أمر الله سبحانه وتعالى خليله إبراهيم عليه السلام أن يبني لله بيتاً يحجُّ إليه الناس من كلِّ فجٍّ عميق، وقد هداه الله إلى مكانه وحدَّده له.

حينئذٍ قال إبراهيم عليه السلام لابنه إسماعيل: إن الله أمرني أن أبني له بيتاً.

قال إسماعيل: فأطع ربك.

فقال إبراهيم: وقد أمرك الله أن تعينني على بنائه.

قال: إذاً أفعل.

فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بحجر فوضعه لأبيه، فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله.

هذا الحجر هو مقام إبراهيم:

ثم قال إبراهيم عليه السلام لإسماعيل: ائتني بحجر حسن أضعه على الركن فيكون للناس علماً، فأخبره جبريل بالحجر الأسود فأخذه ووضعه في موضعه.

وهكذا تعاون إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام حتى رفعا قواعد البيت وأتمَّا بناءه.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة: ١٢٧].

ثم أمر الله سبحانه إبراهيم عليه السلام بأن يؤذِّن في الناس بالحج حيث قال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِى

أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الحج: ٢٧، ٢٨].

فأذَّن إبراهيم عليه السلام بالحج، ولبَّى الناس نداءه، وأصبح البيت الحرام منذ ذلك الحين مثابةً للناس وأمناً[١].

قال رسول الله ﷺ: «**إن إبراهيم حرَّم مكة ودعا لها، وحرَّمت المدينة كما حرَّم إبراهيم مكة، ودعوت لها في مدها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم عليه السلام لمكة**»[٢].

وفاة إبراهيم عليه السلام:

لمَّا حضرت الوفاة إبراهيم عليه السلام كان له من العمر مائة وخمس وسبعين سنة.

وحين مات دفنه ابناه إسماعيل وإسحاق عند قبره سارة عليها السلام في مزرعة حيرون (البلد المعروف بالخليل اليوم).

* * *

(١) «الكامل في التاريخ»، ابن الأثير. (بتصرف).
(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»: (٢١٢٩)، وأخرجه مسلم في «صحيحه»: (١٣٦٠).